الفصل الرابع

سانتيانا وتهافت الحدسية

الفصل الرابع

سانتيانا وتهافت الحدسية

سانتيانا وتهافت الخيرية

ما الموقف الذى جعل «سانتيانا» يسخر من رسل ويهاجم تصوره للخيرية؟ وما دعائم النقد التى بنى عليه «ستيفن بيبر(*)» نقده لمفهوم الخير الحدسى برمته؟ وهل يمكن القول أن النظرية الحدسية التى حفر جذورها جورج مور وأعاد صياغتها فى نفس الصورة برتراند رسل قد ارتدت على أعقابها مدبرة؟؟ أم أن النقد الفلسفى هو الميزة التى يتميز بها رواد الفكر الفلسفى فى القرن العشرين دون أن تجهد صرح النظرية فى شيء؟؟ وما المنهج الذى انتهجه سانتيانا فى تبريره لنقد التصورات الخيرية لنظرية

(*) ولد «ستيفن بيبر» Stephen Colburn Pepper فى نيوأرك Newark، نيوجرسى New Jersy فى الرابع من إبريل عام 1891م. وكان والده هو مصور البورتريهات المشهور «تشارلز نوفى بيبر» Charles Novey Pepper وجده هو رئيس مشهور لكلية كولبى Colby College، وعندما بلغ «بيبر» الثانية عشرة من عمره سافرت أسرته فى رحلة حول العالم، وفى ذلك الوقت بدأ «بيبر» كتابة يومياته التى سوف يستمر فيها طوال حياته. وبعدها حصل « بيبر» على درجة البكاريوس فى الفنون والآداب A.B. Bachelor of Arts من جامعة هارفارد عام 1913م، والماجستير M.A عام 1914م، ثم حصل على الدكتوراه فى الفلسفة Ph. D. عام 1916م. وفى نفس العام استمع «بيبر» إلى محاضرات «جورج سانتيانا»، كما درس على «بالمر» Palmer، ولكن «رالف بارتون بيرى» Ralf Barton Berry هو أستاذه فى هارفارد الذى كان تأثيره عليه كبيرا فى تطوره العقلى. وفى عام 1919م التحق «بيبر» بقسم الفلسفة بجامعة كاليفورنيا فى «باركلى» University of California at Berkely حتى أصبح أستاذًا عام 1930م، ثم أستاذ كرسى الفلسفة وأستاذ كرسى الفن، حتى وافته المنية فى 1 من مايو لعام 1972م.

انظـر- رمضان الصباغ: النظرية الجمالية السياقية عند ستيفن بيبر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004م، ص ص-9 12.

القيمة الحدسية؟؟ و إلى أى حد كان «ستيفن بيبر» محقًا فى نقده الخيرية الحدسية المورية التى اتبعها رسل بشكل كلى؟؟

قبل الشروع فى تحليل نقد النظرية التصورية لمحمول الخيرية كما عرضها سانتيانا(*) فى كتابه «اتجاهات النظرية» Winds of Doctrine كدراسة نقدية للاتجاهات المعاصرة فى الفكر الفلسفى، يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة إلى الرؤية التى قدمها «آير»(**) إلى تصور

(*) يشير الكاتب هنا إلى تلك العلاقة التى كانت قائمة بين كل من سانتيانا ورسل فى بدايتها الأولى منذ أن زار سانتيانا إنجلترا فى عام 1896م، على الرغم من سانتيانا كان على علاقة أقل سعادة مع المؤسس الأول للنظرية الحدسية ألا وهو «مور»، فرسل هو الرجل الإنجليزى الأول الذى قابله سانتيانا عندما أرسل إلى جامعة أكسفورد، كما زار رسل الولايات المتحدة الأمريكية فى عام1886م، حيث زار هارفارد لبضعة أيام وقدمه أحد الأشخاص لزيارة سانتيانا، ثم كون سانتيانا عنه انطباعات من منظور أن رسل مستمع جيد، وقد استمرت صداقتهم الحميمة حتى مات سانتيانا...

انظـر:

Timothy L. S. Sprigge: Santayana, an Examination of his philosophy, Routledge- Kegan Paul, London and Boston, 1974, p.26.

و«فى مدح الكسل» أخبرنا رسل بنفسه عن تلك العلاقة الحميمة التى كان بينه وبين سانتيانا، فيقول: «لقد أخبرنى أخى الذى عرفت سانتيانا عن طريقه بأنه فيلسوف، ولذلك نظرت إليه فى إجلال عظيم زاد من شأنه ما كنت أحس به من تحرر وانطلاق، فكانت له حين ذاك عينان واسعتان لامعتان على قسط وافر من الجمال. أنصت إليه باحترام لأنه بدا لى كما لو كان تجسيدا لمركب صعب - أعنى الجمع بين أمريكا وأسبانيا، كما كان فى حياته الخاصة شبيهًا جدا بما كان عليه فى كتبه، فكان دمث الأخلاق شديد الرقة والعناية فيما يقوم به- كما كان من النادر جدا أن تثور أعصابه. وأنا لا أستطيع أن أذكر على أية حال- أى شىء من الحديث الذى دار بيننا فى تلك المناسبة.».

انظر: برتراند رسل: فى مدح الكسل ومقالات أخرى، ترجمة / رمسيس عوض، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 65، 1998م، ص ص76،75.

(**) آثرت هنا أن أبدأ بفيلسوف الوضعية المنطقية «آير» لمناقشة رؤيته النقدية للنظرية الحدسية، وذلك لكون «آير» أحد دعائم الفلسفة التحليلية المعاصرة، فضلاً عن كونه رائد الوضعية المنطقية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى - وهى الأهم - أن «آير» قد عاصر كل من «مور» و«رسل» وكان زميلاً لهما فى كيمبردج، مما دعى «آير» أن يجعل أحد كتبه المهمة يحمل عنوان «رسل ومور» ليناقش الإختلافات الجوهرية التى كانت بين الفيلسوفين، و«آير» عندما يقوم بنقد الاتجاه الحدسى لا ينقده فى فلسفة رسل فحسب، و إنما وجه «آير» رؤيته النقدية للنظرية الحدسية برمتها متمثلة فى مؤسسها «مور» أولاً، ومن سايره فيها ويقصد رسل هنا، بينما كان نقد سانتيانا موجهًا لنظرية رسل الحدسية فقط، وذلك لكون سانتيانا ورسل صديقين بينهما علاقات وكتابات فلسفية، فى حين كانت علاقة «مور» و«سانتيانا» تكاد=

رسل للحدسية الأخلاقية، حيث يرى «آير» أن رسل لم يعط أبدًا اهتمامًا كبيرًا للنظرية الأخلاقية رغم أن كتاباته فى المسائل الأخلاقية كان لها تأثيرٌ لا حد له، فقد كان رسل مقتنعًا فى أيامه - وقانعًا بمتابعة «مور» فى تبنى وجهة نظر واقعية حول «الخير» من حيث أنه المصطلح الأخلاقى الأساسى، وفى اعتبار الأفعال الصحيحة الأفعال ذات النتائج الأفضل، فلقد كان إسهامه الأساسى الوحيد يكمن فى إصراره على أن حرية الإرادة تتطلب الحتمية[1].

ويعيب «آير» على النزعة الحدسية برمتها فى عدم اهتمامها بالوظيفة التعبيرية التى يمكن أن تكون للحدود الأخلاقية[2]. ولكنه يغفر لرسل إخفاقه فى نظريته الحدسية، وذلك كما جاء على لسان «آير» فى قوله «أن رسل كان مهتمًا اهتمامًا شابيًا يافعًا بالميتافيزيقا وتساؤلات الفلسفة الخلقية، ولكن كان حبه الأول كما أشرت سابقًا إلى الرياضيات، حيث كانت لديه الرغبة فى إيجاد السبب الحقيقى الذى من أجله كان صدق الرياضيات»[3].

كما تخفق النظرية الحدسية كنظرية أخلاقية وذلك لأننا نستطيع أن نقدم فى كل حالة تبريرا Justification لما تمليه علينا حدوسنا، بالإضافة إلى أن النظرية الحدسية قد تعنى فى التحليل النهائى أحد معنيين لا نرى بينهما ارتباطا منطقيًا أو ضروريًا، فهى قد تعنى النظرية المعرفية الخاصة بطبيعة الأحكام أو الأسلوب الذى يتوصل به إلى معرفة هذه الأحكام، أو أنها تعنى النظرية التى ترى أن هناك عددا من القواعد الأخلاقية التى تكون ملزمة لنا دون النظر لخيرية هذه القواعد[4].

أما جورج سانتيانا - فيلسوف جامعة هارفارد Harvard Philosopher قد قرر بطريقة بارعة تدمير وإبطال نظرية برتراند رسل الأخلاقية، وكذلك تلميحات «مور» الأخلاقية فى هذا الصدد، فنظريته الأخلاقية لم تكن عبارة عن تحليل منطقى لفلسفة الأخلاق، فهى

= تكون طفيفة جدًا، فى حين كون «سانتيانا» مع «رسل» صداقة وطيدة مما دعى الأول أن يذكر الثانى فى كتابين مهمين وهما «رياح المذهب» و«البيوريتانى الأخير» وهو عبارة عن مسرحية شعرية، فى حين لم يذكر «سانتيانا» «مور» فى أى من كتاباته... الباحث.

(1) ألفريد جولس آير: الفلسفة فى القرن العشرين، مرجع سابق، ص117.

(2) محمد مدين: الأكسيولوجيا فى الفكر الفلسفى المعاصر، مرجع سابق، ص81.

(3) A. J. Ayer: Russell and Moore, op.cit, p.5.

(4) محمد مدين: الأكسيولوجيا فى الفكر الفلسفى المعاصر، مرجع سابق، ص82.

بالكاد تأخذ بشكل جدى هذه الألغاز الإدراكية لإمكانية تعريف الخيرية، وكذلك الأشكال المختلفة للخيرية، وأيضًا تأخذ فى طياتها ذلك الترابط الوثيق بين القيمة والإلزام [1]. فرسل الفيلسوف الأخلاقى فى نظر سانتيانا- قد وقع فى خطأ فى فادح، فلا يجوز لفيلسوف أخلاقى متمرس أن يقع بعد ذلك فى خطأ آخر [2].

وهنا ينبغى التعرض لنقد سانتيانا لرسل، حيث يحاول سانتيانا أن ينقد رسل فى مقاله «عناصر النظرية الأخلاقية» حيث يأخذ عليه سانتيانا أنه بدأ دراسته بقوله «إن ما يسمى بالسلوك الخير good conduct هو وسيلة للأشياء الخيرة بطبيعتها own account لذلك كانت دراسة الخير والسيء منصبة ضمن خصائص النظرية الأخلاقية»[3]. بل رأى سانتيانا أنه بالنظر إلى الإتجاه الأخلاقى عند الفيلسوف محل الدراسة نجده يفتقر فيه إلى الأساس الأخلاقى، ولكن هذه الحقيقة على حد تعبير سانتيانا عنه لا تمنعه من أن يكون له أساس طبيعى a natural ground[4].

وفى هذا الصدد حاول «مور» أن يبرهن واتفق معه رسل فى ذلك على أن معظم الفلسفة الخلقية التى كانت موجودة فى الماضى قد وقعت فى خطأ جسيم، عندما حاولت أن تجعل الخيرية إلى جانب الخصائص الطبيعية الأخرى، ولهذا السبب فهى قد أنكرت النظرية الأخلاقية بوصفها نظرية، وكذلك أهملت مضمون القيمة[5]. كما احتفظ «مور» بالخاصية القيمية للشيء- ألا وهى- الخيرية تلك الخيرية التى توجد داخل الشيء وتكون مرتبطة بالطبيعة الذاتية للشيء ذاته، ولكن ليس هناك طريقة أخرى لهذه الخصائص الأخرى المتناقضة، كما اقترح أن الواجب duty والإلزام ليسوا كالخيرية من حيث التعريف أو التحديد، فأى جملة إلزامية تنجذب نحو نوعين من الجمل الإلزامية: الأولى هى الميل نحو القيم الباطنية، والأخرى: فى النتائج المعتادة للأفعال[6].

وهنا تأتى الاعتراضات التى جلبها رسل لنظريته الحدسية من قبيل- كون الخيرية المشار

(1) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.472.
(2) G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.139.
(3) Ibid: p.138.
(4) Ibid: p.114.
(5) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.
(6) Ibid: p. 465.

إليهـا فى عناصر النظرية الأخلاقيـة خاصية لا طبيعية، بل وصفه للنظريات الخلقية السـابقة عليه بأنها وقعت فى خطأ عظيم عندما حاولت أن تبرهن على كيفية الخير عن طريق الكيفيات الطبيعية الأخرى، مما جعل سـانتيانا يشـير إلى نصوصه فى مقاله السـالف الذكر و يقتبس منها البرهان على خطأ نظرية رسل الأخلاقية، حيث يقول سانتيانا و يتفق معه فى هذا الرأى «رونالد جاجير» Ronald Jager أن رسـل كتب يقول « أن الخير والسيء عبارة عن كيفيات qualities بسيطة تخص الأشياء بطريقة مستقلة عن آرائنا، مثلها فى ذلك مثل فكرة الدائرة والمربع[1].

إذا كان رسل قد قال أن «الخير غير قابل للتعريف» Good is indefinable فإن ما قاله يبدو تافهًا إلى حد ما «على حد تعبير سانتيانا متفقاً معه «جاجير»، فعلى الرغم من أن رسل يشبه مور من قبله، فى كونه يثير هذا المبدأ العجيب، فإنه بذلك غير قادرٍ على تعريف الخير، وعندما كان رسـل غير قادرٍ فإنه يجعل «الخير» ساكنًا «راكداً» Hypostasises فالكيفية «خير» غير قابلة للتعريـف وهـى تمثل ذلك التوكيد الوحيد والصريح، ولكن وجـود هذه الكيفية غير مشروط بوجود الكيفيات الأخرى، وهذا يؤدى إلى إثارة العجب[2].

يقول سـانتيانا «إن منطقى الذى آمنت به غير يقينيًا، فقد كنت أتمنى من السـيد رسـل أن لا يتركـنى أكتشـف بنفسى ذلك الإرتبـاط بين هاتين القضيتـين أن اليمين واليسـار غير قابلين للتعريـف Right and Left are indefinable وأن كل شيء تجاه اليمين ليس ناحية اليمين دون شرط، فـإذا كان هناك فى نفس الوقت شـخص آخر ينظر فى الجهة المضـادة، فإن الذى يكون حقيقيا بالنسـبة للناحية اليمنى يكون حقيقيا بالنسـبة للناحية اليسرى أيضا. فإذا كان السـيد رسـل يعتقد أن ذلك يعد تناقضا contradiction فأنـا أفهم هنا لماذا هذا الكون لا يثير العجب تجاهه[3].

إن التناقض هنا كما يقول سـانتيانا ربما يكون حقيقيا وغير قابل للشـك، فإذا افترضنا أن فكرة الخير فى أى وقت أو فى أى علاقة بفكرة الشر، أو بحدسـية اليمين واليسـار، أو بكيفيات الألـوان مثـل الأخضر أو الأصفـر، فإن هذه الماهيات المشـار إليها غير متجسـدة، ولكن هى

(1) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.

(2) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.473.

(3) G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.141.

ماهيات ثابتة من خلال الأهداف المشار إليها[1]. و إذا كانت الحقيقة تقول أن المربع يكون دائما مربعًا والدائرة هى نفسها الدائرة، فإن الشيء الدائرى ربما يكون بالتأكيد مربعًا أيضًا، وذلك إذا سمحنا لذلك الشيء أن نعطيه ذلك الحجم الصغير ليكون شكلاً اسطوانيًا[2]. أى أن نظرية رسل الحدسية فى الأخلاق سوف تؤدى إلى إختلاط المفاهيم والأفكار الفلسفية، هذا من وجهة نظر سانتيانا.

من خلال ما سبق لقد كان لسانتيانا الحق فى أن يبطل حدسية رسل الأخلاقية، وقد اعترف رسل بنفسه فى ذلك عندما قال «إننى أدين لسانتيانا ببعض الديون الفلسفية، فقد كنت وأنا صغير لا أزال أوافق جورج إدوارد مور على اعتقاده فى موضوعية الخير والشر، ولكن نقد سانتيانا لها فى كتابه «رياح المذهب» جعلنى أهجر هذه النظرة و إن لم أستطع أن أنام مستريحا بهذا كما كان يستريح»[3].

يرى الباحث- أن جورج سانتيانا - فى معرض انتقاده لرسل، كان نقده منصباً على الخصاص الطبيعية بالفعل التى استخدمها رسل ومور من قبله مثل خصائص الألوان، والاتجاهات من اليسار إلى اليمين، وكذلك الدائرة والمربع، فإن كانت هذه الخصائص تقبع داخل إطار الحدسية، فإنها لا يمكن بأى حال أن تتساوى مع المحمولات القيمية التصورية مثل الخيرية أو الصوابية، حيث أن هذه الخصائص طبيعية أما محمولات القيمة فهى غير طبيعية عند كل من رسل ومور، لذلك ركز سانتيانا فى نقده إلى إدراك اللون الأحمر الذى ضرب لنا رسل به المثل، فاللون عند سانتيانا له شروطا تعريفية محددة، وهذه الشروط التعريفية لا وجود لها فى إدراك الخيرية Goodness مما يجعل المقارنة بينهما خاطئة، بالإضافة إلى أن رسل يعترف بأن «الخيرية كيفية غير حسية» بينما اللون الأحمر عند رسل، والأصفر عند مور عبارة عن كيفيات حسية

(1) Ibid: p.142.

(2) Ibid: pp. 142,143.

(3) برتراند رسل: صور من الذاكرة ومقالات أخرى، ترجمة/ أحمد إبراهيم الشريف، مراجعة: زكى نجيب محمود، دار الفكر العربى، القاهرة، 1963م، ص103.

انظر أيضًا:

Bertrand Russell: Philosophy of Santayana, , in, The Philosophy of George Santayana , Edited by P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 459.

بالفعل، ولكن الأمر يختلف مع «الخيرية» فهى كما يؤكد رسل كيفية غير حسية وغير طبيعية، بالإضافة إلى كوننا ليس لدينا الحاسة الخلقية التى تمكننا من إدراكها، ومن ثم فالمقارنة بينهما أى اللون والخيرية مقارنة فيما يرى سانتيانا وجاجير غير مجدية، فلا يمكن مقارنة الشيء الطبيعى بالمحمولات غير الطبيعية.

ولكن إذا كان «مور» يشير إلى الخيرية مقارنًا بينها وبين اللون الأصفر، و«رسل» يقارن بينها وبين اللون الأحمر، فإن سانتيانا فى معرض انتقاده لرسل قد قارن بين الخيرية واللون الأخضر من حيث كون اللون عبارة عن صفة غير قابلة للتعريف على حد تعبير «اسبيريج» فى كتابه عن سانتيانا[1].

يمكن القول هنا أن سانتيانا يقع فى خطأ عجيب، هذا الخطأ أتى إليه بطريق غير مباشر أى أن سانتيانا لم يكن يقصده، فعندما حاول سانتيانا بيان تهافت الخيرية عند كل من مور ورسل، استخدم نفس المنهج الذى أخذ به فلاسفة التحليل الأخلاقى، ألا وهو منهج «الميتا أخلاق» وقد تبدى هذا المنهج فيما كتبه سانتيانا عن الأخلاق الساكنة Hypostatic Ethics التى وصف بها النظرية الحدسية لرسل فى الخير والصواب، لذلك لم يكن سانتيانا راضيا بذلك الوصف مما جعله يقول «هذا ما جعل المسمار يضرب على الرأس» ذلك على حد تعبير سانتيانا فى دفاع عن نفسه[2].حيث فتح الباب أمام الكثير من الكتاب المعاصرين في أن يرجعوا نظرية سانتيانا برمتها في فهم طبيعة الخيرية الأخلاقية إلى نظرية جورج مور، فقال «اسبيريج»[3] أن سانتيانا الفيلسوف الطبيعي الأخلاقي Ethical naturalist الذي يعد واحدًا من أتباع النزعة المورية، يتفق مع نظرية مور الأخلاقية في عنصرين هامين:

الأول: أن الأفعال الخيرة فقط هي التي تعبر عن الخير في حد ذاتها.

الثاني: أن الخير صفة غير محددة حيث يمكن أن نواجهه عن طريق الحدس.

(1) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, p.188.
See also - G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.142.

(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , in The Philosophy of George Santayana , Edited by P.A. Schilpp, Tudor Publishing Company, New York, 1951, P. 504.

(3) Timothy L. S. Sprigge: Santayana, op. cit, pp.189,190.

لقد رأى «ارفنج سنجر» أن سانتيانا أقر بنفسه أن رسل يشبه جورج مور في إصراره على أن مفهوم الخير غير قابل للتعريف، ومن خلال ذلك استنتج سانتيانا بأن الخير والشر عبارة عن صفات تستخدم لوصف الأشياء بشكل له استقلالية عن آرائنا الخاصة[1].

إن وقوع سانتيانا فى منعطف الحدسية المورية جعله يشير إلى الخير مقاربة باللون الأخضر، بل يرى أنه بالنسبة لمفهوم الخير كما يقول سانتيانا فى «العقل فى العلم» Reason in Science أنه ربما قد نسأل أي شخص ما الذي يعنيه الخير Good في أي لحظة، أو ما الذي يعنيه أي شخص بالخير في تفكيره وعقله، أو ما الذي يتفق عليه البشر لكي يعبروا عن الخير، أو ما الذي يريده الله بكلمة الخير؟ إنه لا يهم فيما يقول سانتيانا أن يكون الخير هو ما يعتقد به البشر، أو أن يكون الخير الحقيقي true good هو الشيء الذي لا يطلق عليه أي إنسان بأنه الخير، أو حتى كونهم لا يعرفون عنه أي شيء. ولكن الخير هو ذلك الشيء الذي ليست له صفات، أو خصائص، أو علاقة متوقعة سوى أنه عبارة عن خير بسيط It is simply good[2].

ولكن فى الحقيقة لابد من القول بأن سانتيانا صاحب اتجاه فلسفى عظيم فى فى فلسفة القرن العشرين، فإذا كانت النزعة التصورية لإدراك موضوعية الخير قد جاءته عن طريق الصدفة من خلال تحليله لفلسفة كل من «مور» و«رسل»، فإن ذلك لا ينقص من قدر الفيلسوف شيئًا فى إيمانه بالنزعة الطبيعية الأخلاقية والتى سوف يتبناها رسل أيضًا من خلال الرؤية المقدمة منه فى المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، كما لابد من الإشارة إلى أن سانتيانا لم يتجه إلى نقد نظرية كل من «مور» و«رسل» الحدسية، ولكنه سخر من هذه النظرية، فهذه النظرية يراها سانتيانا بأنها فقدت دعائمها الميتافيزيقية، وبالتالى قد تحطمت على الأرض كما يتحطم طقم الأطباق الفيكتورى الصينى Victorian China فهى نظرية لا يمكن التصديق بها والإيمان بها بدرجة كلية، كما أن رسل ذاته لم يكن يعلم أن نظريته تحطمت على هذا النحو[3].

(1) Irving Singer: Santayana's Aesthetics - Acritical Introduction, The President and fellows of Harvard College, U.S.A. 1957, P. 35.

(2) G. Santayana: Reason in Science, volV, in: the Life of Reason, Coller Books, New York, 1962, p.153.
- See also - Max H. Fisch: Classic American philosophers, Appleton Century Crofts, New York, 1951, p.299.

(3) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.
- Look also- G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.140.

إن المقاربات التى أشار إليها رسل هى التى جعلت نظريته الحدسية تتحطم كما يقول سانتيانا، فعندما يشير رسل إلى أن الطعام والسم لهما نفس الصفات النسبية فى نظر بعض الأجسام الحية، حيث يحتويان على نفس الشىء المادى سواء فى الطعام أو السم فى نفس الوقت، كذلك فإن مشروب الويسكى المسكر whiskey فى الحياة البشرية يكون أكثر سمية من مشروب القهوة، وأن الرأى المضاد لهذا القول يعد رأيا خاطئًا، ولكن ما الطريقة التى نحكم بها على هذه الواقعة العجيبة، على الرغم من التباين والنسبية فى الإصرار بأن مشروب الويسكى أكثر سمية فى حد ذاته دون الرجوع إلى أى أحد من الحيوانات البشرية، وأن هذا السم ينتشر داخل الجسد كما لو كان سمًا داخليًا ويكون غير قاتلٍ إذا كان داخل زجاجته، بهذا الأسلوب فقط - تصور السيد «مور» والسيد «رسل» الأشياء لكى تقتل الخير وتقتل السىء dead good and dead bad[1].

وهنا لابد أن ينوه الباحث إلى ضرورة الأخذ بالنقد الذى قدمه «ستيفن بيبر» Stephen Pepper إلى تصور الخيرية الحدسية برمته حتى يكون الباحث هنا قد أقترب شيئًا يسيرًا من الموضوعية والأمانة العلمية التى يقتضيها البحث العلمى الفلسفى الأصيل.

يرى «بيبر» أنه على الرغم من دفاع «مور» و«رسل» وممثلى النزعة الحدسية فى الأخلاق عن وجود صفة بسيطة، وغير قابلة للتعريف فى مصطلح «الخير»، وأنه لا يدرك بأى صفة مادية أو تجريبية، وإنها تدرك بالحدس العقلى... فقد كان لزامًا على «مور» وغيره من الحدسيين أن يجعلوا للخير شيئًا واقعيًا ماديًا يمكن أن نفهم معناه من خلاله، وأن تجنب «مور» الوقوع فى «المغالطة الطبيعية» جعله يقع فى خطأ التشابه أو التماثل، أى لابد أن يكون للشىء شىء آخر يعرف من خلاله[2].

كما أنتقد «بيبر» نظرية «مور» نقدًا عنيفًا قائلاً: «أن نظرية «مور» نفسها واقعة فى «المغالطة الطبيعية»[3]، حيث تحتوى على تناقض شديد، فأقوى برهان معارض لقول «مور»

(1) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.465.
Look also- G. Santayana: Winds of Doctrine, op. cit, p.140.

(2) مصطفى عبد الرؤف راشد: القيم الأخلاقية عند ستيفن بيبر، مرجع سابق، ص207.

(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.

بأن الخير غير قابل للتعريف هو الشهادة القائلة بأن ما يعرفه «مـور» على أنه الخير غير القابل للتعريـف لا يكون مماثلاً للقيمة أو معرفًا لهـا، لأن مثل هذه الخاصية غير القابلة للتعريف لا تبدو أنها موجودة[1].

يـرى «بيبر» أنه مهما كانت حجة «مـور» و«رسـل» وغيرهم من الفلاسـفة الحدسـيين ضمـن المذهب الصورى صحيحة، فإنهم قد أغفلـوا حقيقة مهمة، وهى أن هناك أمور واقعية إدراكية أخرى فى المسائل الأخلاقية يمكن أن تنصب عليها، كما أن تصريحات كل من «مـور» و«رسـل» بأن الخـير لا يمكن تعريفه أو تحديده، لأنه كيفية بسـيطة وأوليـة، فهذا يعد خطأ فـادح، فمن الواقع أن الكيفية الأولية لا يمكن أن تعرف بشـكل وصفى، لكنها تُعّرف بشـكل ظاهرى، وهذا الكيان البسـيط يمكن أن يكون واضح المعالم جدًا بواسطة طريقة عملية مثل الإشارة التى تقود الشخص لتميز الشىء الذى يهدف إليه التعريف[2].

وقد أشـار «بيبر» أيضًا فى مناقشـته للحدسيين إلى أن محتوى حدوسـهم المعرفية المزعومة متناقضة، لأن مثل هذه الحدوس حتى و إن كانت حقيقية، فإنها ليسـت ذات تأثير مباشر على السـلوك الإنسـانى، وأنه مهما كان محتواها يمتلك براهين علاوة على التحليل، فإنه مستعار من واحدة أو أكثر من النظريات الامبريقية التى ينكرونها[3].

ولكن إذا كانت إنتقادات «بيبر» موجهة إلى النظرية الحدسية عامة، و إلى تصور حدسية مـور لمفهوم الخيرية خاصـة، فإن «برتراند رسـل» تنطبق عليه أيضًا الإنتقـادات التى وجهها «بيـبر» للنظرية الحدسـية، وذلك من خلال المبدأ المنطقى الذى مفـاده أن ما ينطبق على الكل ينطبـق بالضرورة على الجزء الـذى يندرج تحته، وبما أن «جورج مـور» يمثل الكل فى النظرية الحدسـية، وأن فيلسـوفنا يمثل الجزء فى هذه النظرية، فلا غـرو أن تنطبق هذه الإنتقادات على رسل أيضًا.

ولكن هنا ينبغى علينا أن نشـير إلى أن سـانتيانا كان صاحب الفضل على الفيلسوف محور

(1) إيمان محمد عبدالمجيد شكرى: القيم عند إيربان، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1996م، ص96.

(2) المرجع السابق، ص208.

(3) رمضان الصباغ:النظرية الجمالية السياقية عند ستيفن بيبر، مرجع سابق، ص19-18.

الدراسة فى تخليه عن نزعته الحدسية، ورغم ذلك يعترف سانتيانا لرسل فى مولد العقل the Birth of Reason «أن عين اللورد رسل متحركة ودقيقة، فهى تستطلع الكون كضوء كشاف مركز على نحو مكثف، ولكنها لا ترى غير رقعة صغيرة فى كل مرة»[1]. بل حكم سانتيانا على رسل بقوله «حتى حين تكون بصيرة رسل على شدتها وأنفذها، فإن رؤيته الفلسفية تركزها أكثر بما يجب فتكون البؤرة مجهرية فيرى شيئًا واحدًا بوضوح غريب أو يرى خطأ واحدًا من التاريخ والسياسة فيعميه الوضوح الحى لهذا الشىء الجزئى عن رؤية الباقى»[2]. ورغم ذلك اعترف رسل بعلاقته الحميمية لسانتيانا لدرجة جعلت رسل يقول عنه: «أما بالنسبة لى فقد كانت نظرته إلى شأن نظرته إلى سائر فلاسفة الشمال، نظرة الرثاء اللطيف لمن يحاولون مرتقى أعلى مما يطيقون، على أن هذه النظرة لم تعكر مطلقًا صفو علاقاتنا لأن ثقتى الذاتية بوطنى مساوية تمام المساواة لثقته»[3].

من خلال ما سبق يمكن أن نستنتج مع «رونالد جاجير» قوله[4] أن الانتقال من النزعة الموضوعية إلى النزعة الذاتية Subjective يوصف بأنه انتقال إلى الكلى العقلى الظاهرى، وأن ملاحظات رسل عن الخيرية النموذجية أو نماذج الخيرية عبارة عن جزء من تحوله، لذلك كان الصواب هنا هو الكائنية issue (إمكانية التحول) التى تعنى إدراك الطريقة المفاجئة التى غادر بها رسل مكانته الداخلية، وأن هذا التحول قد حقق ثلاث اتجاهات من التفكير، ولم يوجد هناك أى اتجاه يمكن القول عنه قد وقف عنده التفكير:

الأول: لقد حاول رسل إدراك الحدود الكلية لمعنى الخيرية فيما ينبغى أن تعنيه فى حسابها الخاص، وهذه المرحلة تخلى عنها بعد نقد سانتيانا له، مما يدل على عدم تمكنه من أدواته المعرفية وسطحية رؤيته.

(1) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين، دار الآفاق، بيروت، ب. ت، ص111.

(2) برتراند رسل: فى مدح الكسل ومقالات أخرى، مصدر سابق، ص79.

وانظر أيضًا - برتراند رسل: صور من الذاكرة ومقالات أخرى، مصدر سابق، ص105.

(3) المصدر السابق: ص100.

(4) Ronald Jager: The Development of Bertrand Russell's Philosophy, op. cit, p.470.

الثانى: انتهى رسل إلى نزعته الانفعالية Emotivism والتى كانت الفكرة فيها أن كل أحكام القيمة all value judgments كانت من نفس نوع الأحكام الوجودية being مثلما إفترض أن كل الموضوعات واقعية fact وبالتالى فهى تالية مثلما افترض أن كل الموضوعات إنفعالية أو رغبة desire أو تذوق taste .

الثالث: لقد ألزم رسل نفسه بطريقة منطقية نحو الواقعية Realist فعندما نقول أن هذا العشاء طيب، فإن كل الذى تستطيعه هو أن تتيقن أن هذه هى الحقيقة، وأن تجعل من هذه الحقيقية بديهية.

تعقيب عام

من التحفظات التى يأخذها الكاتب على الفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل هى المسايرة العمياء لنظرية صديقه «مور»، فقد كان مور صاحب الفضل الأول على رسل بل وموقظه من سباته المثالى إلى الواقعية الجديدة التى تبناها مور بعد دحضه للنظريات المثالية، وما فعله رسل هنا هو مسايرته لصديقه لا أكثر، ذلك التحول الذى يعد الركيزة الأساسية لدى رسل الذى لولاه ما اقتنع رسل بالنظرية الحدسية لجورج مور، وهذا ما دعا سانتيانا - الفيلسوف الأمريكى - إلى نبذ النظرية الخيرية فى حدسية رسل، مما جعله يدعوها بالنظرية الأخلاقية الساكنة، ومحاولته بيان تهافتها فى رياح المذهب، لدرجة يمكن القول فيها أن سانتيانا سار فى هذه اللحظة من أتباع النزعة المورية فى الأخلاق على الرغم من كونه فيلسوف الطبيعية الأخلاقية وفيلسوف الإحساس بالجمال، وبالتالى وقع سانتيانا فى شباك النقد من قبل بعض الباحثين الغربيين وذلك عندما كان بصدد نقد فكرة الألوان التى أشار إليها كل من مور ورسل، حتى سايرهم فيها وقال هو باللون الأخضر.